﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢٠ وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ٢١﴾ [الفتح: 20 - 21]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلهما:

الانتقالُ من الإجمال إلى التَّفصيل بذكر المغانم العاجلة والآجلة

لمّا ذكرتِ الآية السّابقة المغانم الَّتي يأخذها المؤمنون على سبيل الإجمال؛ ناسب أن يزيد في هاتين الآيتين تفصيلًا لها، فبُيِّن أنَّ منها المُعَجَّلَ، ومنها المؤجَّل، فالمعجَّل المشار إليه في الآية الأولى، وكفِّ أيدي النّاس عن المؤمنين، وليرزقهم فَهْمَ سُنَنِه، والمؤجَّل: مغانم كثيرةٌ أخرى غير هذهِ، وهي مغانمُ هَوازِن الَّتي لم يحصل قبلَها ما يُقارِبها[1]، فجَمَعَ اللّه تَعالى لهُم بينَ البِشارَتَيْن: العاجلةِ والآجِلَةِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَعَجَّلَ﴾: (عجل) تدلُّ تصريفاتُه على الإسراع، ومنه: العجلةُ في الأمر، يُقال: هو عجِلٌ وعَجُلٌ[2]، والعَجَلَةُ: طلبُ الشَّيء وتحرّيه قبلَ أوانِه، وهو مِن مُقْتضى الشَّهْوَة، فلذلكَ صارَت مذمومَةً في غالبِ القرآنِ، حتّى جاء في الحديث: «العَجَلَةُ من الشَّيطان»[3]، وقال اللّه تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ٣٧﴾ [الأنبياء: 37][4]، والمراد بالآيةِ هو تعجيل المسرَّة ببعض المغانم والبُشريات.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 319 - 320.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عجل).
(3) رواه أبو يعلى في مسنده، رقم: (4256)، والبيهقي في السنن الكبرى، رقم: (20270)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم: (1795).
(4) الراغب، المفردات: (عجل).

2) ﴿وَكَفَّ﴾: (كفف) تدور اشتقاقاته على قبضٍ وانقباضٍ، ومنه: الكَفُّ للإنسانِ، سُمّيَت بذلكَ؛ لأنَّها تَقْبِضُ الشَّيءَ، ثُمَّ تَقولُ: كَفَفْتُ فُلانًا عَنِ الأمرِ وكَفْكَفْتُهُ[1]، ورجل مَكفوفٌ؛ لمن قُبِض بصرُه، واستَكَفَّ الشَّمسَ؛ إذا دفعَها بكفِّه، وهو أن يضع كفَّه على حاجِبِه مستظلًّا مِنَ الشَّمس ليَرى ما يَطْلُبُه[2]، والمراد في الآيةِ: دَفْعُ أذى النّاس عن المؤمنين.

3) ﴿وَأُخْرَىٰ﴾: (أخر) تدور تصريفاتُه على ضدِّ التَّقدُّم، ومنه: الآخِر، وهو نقيضُ المتقدِّم، والأُخْر ضدُّ القُدُم[3]، والمرادُ بـ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ في الآية: بلدة أو قرية أو غنيمة أخرى، وهي فارس والرّوم وغيرها و[4]، وقيل: خيبر، وقيل: مكّة، وقيل: هوازن وثقيف، وقيل: ما يَفْتَحُهُ المُسْلِمونَ مِنَ البِلادِ إلى قيامِ السّاعَةِ[5].

4) ﴿تَقْدِرُوا۟﴾: (قدر) تدلُّ اشتقاقاتُه على مبلغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونهايتِه، ومنه القَدْرُ، وهو مبلغُ كلِّ شيءٍ، يُقال: قدرهُ كذا، أي: مَبْلَغُه كذا[6]، ومعنى قوله: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟﴾: لم تَملِكوها، وتَتَمكَّنوا منها، ولم تَقْدِروا على أخْذِها الآنَ، وستأخذونَها في الأيّام القابِلَة.

5) ﴿أَحَاطَ﴾: (حوط) تدلُّ تصريفاتُه على شيءٍ يُطيفُ بالشَّيءِ، يُقال: حاطَهُ حَوْطًا[7]، ومعنى قوله: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾: قضى اللّه بها أنَّها لكم، والإحاطة على وجهين، أحدهما: في الأجسام نحو أحطت بمكان كذا، ويُستعمل في الحفظِ، نحو: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾ [فصلت: 54]، أي: حافِظٌ له من جميع جهاته، والآخَرُ: في العلم، نحو قوله تعالى: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: 12]، فالإحاطة بالشَّيء عِلْمًا هو أن يَعلمَ وجودَه وجِنْسَه وكيفيَّته وقَدْره وغرضَهُ المقصود به، وبإيجاده وما يكون هو منه، وذلك ليس إلّا للّه تعالى[8]، وهذا المعنى هو المقصودُ هنا.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كف).
(2) الراغب، المفردات: (كف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخر).
(4) تفسير مقاتل بن سليمان: 4/ 74.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 11/ 283.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حوط).
(8) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 508.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

وعْدُ الله تعالى المنجز والمعجَّل لأهـل الإيـمـانِ نافذٌ

تُبيِّن الآيتان أنَّ الله تعالى وعد المؤمنين مغانم كثيرة يأخذونها من أعدائهم، مخلصين واثقين بنصر الله تعالى، فعجَّل لهم غنائم خيبرَ مكافأة لهم على إذعانهم في الحديبية لأمر رسول الله ﷺ، وكَفَّ أيديَ النّاس عنهم بعَدَم القتال سواءٌ أكانوا أهلَ مكَّة أم أهل خيبرَ ومَن والاهم، وليكون هذا النَّصر والتَّأييد آيةً لهم يزيدهم يقينًا بنَصْرِ الله تعالى، ويهديهم طريقَ الحقِّ والصَّواب، كما وعدهم مغانم أخرى، لم يقدروا عليها في أوَّل الأمر، ولكنَّ الله سُبحانَهُ أحاط بها، واستَولى عليها، فهي في قَبضَتِه، وتحتَ تصرُّفه يظهر من يشاء عليها، وقد أظهر المؤمنين عليها حينَما توجَّهوا له، وكان الله عَلى كلِّ شيءٍ قديرًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئناف البياني:

بيانُ الأخبارِ بعد التَّشويق أوقع في النَّفس من الإخبار المجرَّد

فُصِلت الجملة في قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا﴾؛ لأنَّها مُستَأنَفَةٌ استِئنافًا بَيانيًّا نَشَأ عَن قَوله تعالى: ﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحًا قَرِيبًا ١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأۡخُذُونَهَاۗ﴾؛ إذ عُلِمَ أنَّهُ فَتحُ خَيْبَرَ، فَحَقَّ لهم ولِغَيرهم أن يَخطُرَ بِبالهم أن يَترَقَّبوا مَغانمَ أُخرَى، متسائلين: هل من مغانم أخرى؟ فَكانَ هَذا الكَلامُ جَوابًا لهم، أي: لَكُم مَغانمُ أُخرَى لا يُحْرَمُ مِنها مَن تَخَلَّفوا عَنِ الحُدَيبيةِ، وهيَ المَغانمُ الَّتي حَصَلَت في الفُتوحِ المُستَقبَلَةِ[2]، ففصلت عن سابقتها لشبه كمال الاتِّصال كما يفصل الجواب عن السُّؤال، ووراءه بيانٌ للخير العام الَّذي يضمره الغيب لجميع المسلمين.

دلالةُ استعمال مفردة ﴿وَعَدَكُمُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الـوعـدُ الكريم مـتـحـقِّـقٌ لا محالة

جاء استعمال مفردة ﴿وَعَدَكُمُ﴾؛ لبيانِ أنَّ ما جاء في قول الله

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 491.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 177، 176.

تعالى: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَاۗ﴾، هو وعدٌ كريم من الكريم سُبْحانه، فالوعد متحقِّقٌ - لا محالةَ - وأكَّد تحقُّقَ وقوعِ الوعدِ بتلك الغنائم التَّعبيرُ بصيغة الماضي ﴿وَعَدَكُمُ﴾؛ ليبثَّ في نفوسهم الاطمئنانَ والسَّكينة والتَّفاؤل في خيرٍ عميم لهم في الغَدِ القريب.

نكتةُ إظهار الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾:

تعظيمُ الوَعْدِ وإدخالُ المَهابةِ في النُّفوس

جاء المسند إليه - وهو فاعل الفعل ﴿وَعَدَكُمُ﴾ - معرَّفًا بالعلميَّة ﴿ٱللَّهُ﴾؛ إكرامًا للمؤمنين الموعودين بالمَغانم، مع الإعلام بأنَّه ﷻ هو الَّذي وعد، وهو الَّذي سيُنجز وعدَه، ولإدخالِ المهابة في قلوب المخاطَبين، فإنَّ ذِكر الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ أقوى في النَّفس، وآكدُ في الخطاب؛ لوجود التَّلميح إلى صدور الوعد عن الكريم سُبحانه، وفيه تعظيمٌ للموعودِ بإسنادِ الفعلِ إلى الاسم المتضمِّن صفاتِ الجلال والكمال والجمال؛ إذ لا يصدُرُ مِنَ العظيمِ إلّا عظيمٌ.

بلاغةُ الالتفاتِ مِن الغَيبة للخِطاب:

تشريفُ المؤمنين في مَقام المنَّة حيث كانوا أهلًا للخطاب

التَفَت النَّظم الكريمُ من الغَيبة في قوله: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَاۗ﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾؛ إذ كانوا أهلًا للخطاب بما قدَّموه من تسليم وإذعان لله تعالى ولرسوله ﷺ، ولا أدلَّ على ذلك من مبايعتِهم رسولَ الله ﷺ على المَوْت، فكافأهُم بتلك الغنائم مُقْبِلًا عليهم بأسلوب الخطاب، مزيلًا كلَّ احتمالٍ يتردَّد في خواطر المُخَلَّفين: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ﴾[1]، تشريفًا وتعظيمًا في مقام المنَّة والعطاء.

غرض تكرار ﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾:

لمّا كان الغرضُ من الخطاب التَّأكيدَ على مكافأة المؤمنين بمغانمِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 318.

خيبرَ وغَيْرِها؛ كرَّر النَّظم القرآنيُّ ذِكْرَ أخْذِ المغانم الكثيرة في قوله سبحانه: ﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ بعد قوله قبلُ: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾؛ ليدلَّ على تحقُّق تحصيلِهم لها وقُرْبِ ذلكَ، وأنَّها غنائِمُ كثيرة في الأفرادِ متنوِّعة في الأجناسِ، فيما يأتي من بلدانٍ شتّى لا تدخل تحت حَصْر[1]، وقد حقَّق اللّه تعالى لهم ما وعدهم، وإنَّ شأنَ النَّفسِ الشَّغفُ بسماع الخير، وحُبِّ سماع خبره، فتَكرار هذه الجملة له وقعٌ في النَّفس يدعوها إلى مزيد الاستبشار والبشاشة.

النَّفس مجبولةٌ على حبِّ سماع الخيرِ والوعد به

غرضُ التَّقييد بجملة الصِّفة:

جاء تقييد ﴿مَغَانِمَ﴾، وهي نَكِرة موصوفَةٌ بالكثرةِ بجُملَةِ: ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾، وهو وصفٌ ثانٍ؛ لتحقيق الوعدِ[2]، وليدلَّ على أنَّهم سوف يتمَلَّكونها بأيديهم، فإنَّ ذِكرَ كيفيَّة تحقيق الوعد وتحصيل الغنائم أدعى للسَّعادة، وأرسخ في البشارة، كما أنَّ فيها إيماءً لهم بِطولِ الأجل حتّى يأخُذوها، فجَمَعَ لهُم بذلك بين بِشارَتَيْن.

تمامُ السَّعادةِ في ذِكْرِ تفاصيلِ البِشارة

دلالةُ التَّعبير بالفعلِ المُضارِعِ ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾:

دلَّ التَّعبير بصيغة الفعل المُضارع في قول اللّه تعالى: ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ على تحقُّقِ هذا الأخذِ؛ لِما فيْهِ من استحضار تلك الصّورة السّارة للمؤمنين، وهُم يأخذون المَغانم.

تحقُّقُ حصولِ المَغانِم لأهلِ الإيمانِ

معنى الفاء ودلالتها:

الفاء في ﴿فَعَجَّلَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدها على جملة: ﴿وَعَدَكُمُ﴾[3]، ويجوزُ أن تُضمَّن معنى السَّببيَّة، أي: فكان وعدُ اللّه تعالى إيّاكم بتلك الغنائم الكثيرة

وعْدُ الله تعالى سببٌ في تعجيلِ النَّصْر

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 318.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 177.
(3) الصافي، الجدول في إعراب القرآن: 26/ 259.

سببًا في أنَّه عجَّل لكم هذه، يعني: الهُدنةَ والمصالحة ووضْعَ الحربِ بينَكُم وبين أهل مكَّة، ووضْعَ الحرب عشر سنينَ على أن تأتوا العامَ المقبلَ مِن مثل هذا الشَّهر معتمرين، فإنَّها سببُ ذلك كلِّه، ويحتمل أن يكون المعنى: الغنائِم التي فتحها اللّه تَعالى عليكُم مِن أهل خَيْبَر مِن سَبْيِها وأموالِها والمنقولاتِ وغيرِها[1].

دلالةُ التَّعبير بمفردة (عجَّل) مادَّة وصيغة:

استكمالُ بِشارَةِ أهلِ الإيمانِ

جاء استعمال مفردة (عجَّل) في قول اللّه تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾؛ لِبيانِ أنَّ تعجيل المسرَّة توطئة لِما بعدها من استكمال البُشريات، ويُخرَّج هذا المعنى على وجهين، فإذا كانت هذه السّورة نزلت دَفعة واحدة؛ فإنَّ الفعلَ (عجَّل) يكونُ مستعملًا في الزَّمن المستقبل مجازًا؛ تنبيهًا على تحقُّق وقوعه، أي: سيُعَجِّل لكم هذه، وإنَّما جُعِل نَوالُهم غنائمَ خيبر تعجيلًا لقُرْب حصوله مِن وقت الوَعْدِ به، ويحتَمِلُ أن يكون تأخُّر نزول هذه الآية إلى ما بعد فتح خيبرَ على أنَّها تكملة لآية الوعد التي قبلها، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ أمر بوضعها عَقِبَها، والأوَّلُ أظْهَرُ؛ لأنَّ هذا الثّانيَ غيرُ مَرْوِيٍّ[2].

غرضُ تقديم ﴿لَكُمْ﴾:

الاهتمامُ بالمخاطَبين في مقام التَّبشير

قُدِّم ذكرُ الجارِّ والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ - وهو من متعلِّقات فعل (عجَّل) - على المفعول، وهو ﴿هَٰذِهِۦ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾؛ لقَصْر البشرى بتلك الغنائم عليهم، فهي خاصَّة بهم دون سِواهم، وليُقَدِّم بين يدي البُشْرى ضميرَ المختَصّين بها؛ اهتمامًا بشأنهم وتعظيمًا لهُم.

دلالةُ استعمال اسم الإشارة للقريب:

تأنيسُ المخاطَبين بالمُشار إليه

جاء التَّعبيرُ باسم الإشارةِ ﴿هَٰذِهِۦ﴾ الموضوعِ للقريب، والمرادُ بها

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 318.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 177.

غنائِمُ خيبرَ؛ ليدلَّ على قُرب تملُّكها والاستيلاء عليها، وأنَّها مُعجَّلة قريبَةٌ، وليُذهب بذلك ما ثارَ في نُفوسِهم من حُزْن وغَمٍّ بِرُجوعِهم يوم الحديبية، مع ما فيها من الدَّعوة إلى التَّفكُّر في المُشار إليه؛ إشعارًا بمزيد إيناسٍ.

معنى الواو ودلالتها:

عطْفُ المِنَّةِ على المِنَّة للحثِّ على الشُّكْرِ

الواو في ﴿وَكَفَّ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ عاطفَةٌ الجملةَ بعدها على ما تقدَّمها، وهي قوله: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾؛ لِما بينهما من التَّوسُّط بين الكمالين؛ إذ الجملتان مشتركتانِ في الخبريَّةِ، وبينهما تناسبٌ لفظًا ومَعْنًى، فأمّا اللَّفْظُ؛ فاتِّحاد الجملتين في الفِعْليَّة والماضويَّة، واتِّحاد المسندِ إليه فيهما، وأمّا المعنى؛ فلِما فيه من عطف النِّعمة على النِّعمة، وذلك مقتضٍ المبالغةَ في الامتنان على المؤمنين؛ حضًّا لهم على الشُّكر بالإقبال على الله ﷻ فيما سيكون للمؤمنين قريبًا.

مناسبةُ استعمال مفردة (كفَّ) للسياق:

صَرْفُ الأذى قبلَ وُقوعِه

جاء استعمال مفردة (الكفِّ) في قول الله تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾، والكفُّ هو منْعُ الفاعلِ من فعلٍ أراده، أو شَرَع فيه، وهو مشتقٌّ من اسمِ الكَفِّ الَّتي هي اليدُ؛ لأنَّ الأصل في المنع أن يكونَ دفعًا باليدِ، وأُطْلِقَ الكفُّ مجازًا على الصَّرف، أي: قدَّر الله تعالى كفَّ أيديَ النّاس عنكم، بأن أوجَدَ أسباب صَرْفِهم عن أن يتناوَلوكُم بضرٍّ سواءٌ أنَوَوهُ أم لَم يَنْووه[1]، ولمّا كانت أيدي النّاس هي الواصلةَ للمؤمنين بغرض الإيذاء؛ ناسب استعمال مفردة الكفِّ الدّالَّة على معنى صَرْفِ أيديهم عن المُؤمنين.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة الماضي:

جاء التَّعبير بالفعل الماضي (كفَّ) في قول الله تعالى: ﴿وَكَفَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 178.

بيانُ صَرْفِ أيدي النّاس عن المؤمنينَ حالًا واستقبالًا

﴿أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾؛ تعبيرًا عن المستقبَلِ بالماضي لإرادةِ تحقُّقِ الوقوع، وذلك لأنَّ الكفَّ إمّا أنَّه لم يقع بعدُ؛ إذا أُريد بالكفِّ كفُّ أهل خيبر ومن والاهم، وذلك للتَّأكيد على أمان جولتهم عليهم وضمان انتصار المسلمين عليهم، فيكون ذلك مجازًا عمّا سيقعُ، لمعاملته معاملةَ ما وقع، وأمّا إذا أُريد به كفُّ أهل مكَّة يوم الحديبية؛ فإنَّ الفعلَ مستعملٌ في أصله؛ لبيان المنَّة عليهم بصَرْفِ المُشْرِكين عَنْهُم.

بلاغة الكناية:

دَفْعُ الله تَعالى عن المؤمنينَ الأذى وأسبابَه

كفُّ الأيدي في قولِ الله تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ كنايةٌ عن صِفَةِ المَكْر والأذى، وعبَّر بالأيدي باعتبارِها أداةَ القوَّة والبطش والجبروت، ووجهُ بلاغته: أنَّه منع عنهم أسبابَ المواجهة والحربِ، فعبَّر بالأيدي؛ لكونِها أداةَ ذلك والموصلَة إليه، ولا يكون القتال إلّا بها، فجاء الامتنان على المؤمنين بذِكْرِ دفعِ الأذى ووسائله.

بلاغةُ المجازِ في تعريفِ لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

الإيماءُ إلى قدرة الله تعالى في كفِّ أيدي جميع النّاس

المقصودُ بلفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ أهل مكَّة؛ جريًا على مصطلح القرآن في إطلاق هذا اللَّفظ غالبًا، وقيل: هُمُ الأعراب المشركون من بني أسَدٍ وغَطَفانَ، وكانوا أحلافًا ليهودِ خيبرَ، وجاؤوا لنُصْرَتِهم؛ لَمّا حاصَر المسلمون خيبرَ، فألقى الله تعالى في قلوبهم الرُّعب، فتَكَصوا، وقيل: هُمُ اليهود؛ إذ كانوا يستطيعون أن يهجموا على المدينةِ في مدَّة غَيْبَة مُعْظَم أهلِها في الحديبية، وهذا القولُ لا يناسبه إطلاقُ لفظ النّاس في غالب مصطلح القرآن الكريم[1]، فلفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ على جميعِ هذه الأقوال عامٌّ أُريد به الخصوصُ، فهو مجازٌ مرسَلٌ بعلاقةِ العموميَّةِ؛ أُطْلِقَ العامُّ، وأُريدَ الخاصُّ، وليس هو من إطلاق الكلِّ وإرادةِ الجزء، وتظهر بلاغةُ هذا المجازِ في أمرين، أحدهما:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 178.

فيه إيماءٌ إلى قدرة الله تعالى على كفِّ أيدي جميع النّاس. والآخر: المبالغة في بيان شأنِ مَكْرِ النّاس بالمؤمنين.

دلالةُ الحرفِ (عَنْ):

دَفْعُ الله تعالى عَن أهلِ الإيمان مَـع مـا كـانـوا عليهِ مِنَ القِلّة والضَّعف

أفاد حرفُ الجرِّ (عَنْ) في قول الله تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ معنى المجاوزَةِ، أي: إنَّ النّاسَ من أهل الكفر تجاوَزوا البطشَ بالمؤمنينَ؛ بسبب كفِّ الله تعالى أيديَهم عنهم، على ما كان عليه المؤمنون من القلَّة والضَّعف[1].

معنى الواو ودلالَتُها على معاني السّياق:

صِـدْقُ الإخبـارِ عَنِ الغُيوبِ آيةٌ ومعجزةٌ

الواوُ في ﴿وَلِتَكُونَ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ عاطفَةٌ إمّا على محذوفٍ مقدَّرٍ؛ لعدم تقدُّم ما يصلح لعطفه عليه ظاهرًا، أي: ليَشْكُروه ولتكونَ، أو وعدَ، فعجَّل، وكَفَّ؛ لينفعكم بها، ولتكونَ آية للمؤمنين؛ إذا وجدوا وعدَ الله تعالى بها صادقًا؛ لأنَّ صِدقَ الإخبارِ عن الغيوب معجزةٌ وآية، ويزيدكم بذلك هدايةً وإيقانًا، وإمّا أن يُقَدَّر ما يتعلَّقُ بالفعل مُتَأخِّرًا، أي: وليَكونَ الكفُّ آية للمؤمنين فعلَ ذلك، وجوِّز كونه علَّة لجميع ما قبله من قوله: ﴿وَعَدَكُمُ﴾، والتَّقدير: لنفعكم بما ذُكِر ولِتَكون[2]، فهو قد ذكَر المغانم الكثيرة الَّتي وعدها لهم: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾، فكان هذا الوعد سببًا في تحقيق ما بعده مفصَّلًا على التَّرتيب، وأوَّله: وضع الحرب مع أهل مكَّة: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾، وثانيه: الحماية من أذى النّاس: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾، وثالثها: تَثْبيتُكم برُؤْيَتكم تحقيقَ ما وعدكم الله: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، بما ترون من أسبابِ الفتحِ القَريبة بما يُدخل من النّاس في دينكم[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 318.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 341، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 494، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 60.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 318.

مَعْنى اللّام ودلالتُها:

انـهـزامُ الـكـفّار من غير قتالٍ مِن أعظَمِ الآيات

اللّام في قولِ الله تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ﴾ بمعنى (كي)، والمعنى: لكي تكون هزيمَتُهم مِن غير قتال آيةً للمُؤمنين[1]، وهو جزء من تحقيق وعْدِ الله تعالى، أي: فعلَ ذلكَ؛ لتكون آيَةً.

دلالةُ التَّعبير بالفعل المُضارِع:

تـجـدُّدُ الاعتبارِ بـالآيـات على مدى الأيّام

أفاد الفعل المضارع (تكون) من قول الله تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لإفادةِ مَعنى التَّجدُّد الاستمراريِّ، أي: لتكون هذه الآية لهم ولغيرهم ممَّن يأتي بعدَهم، تَتناقَلُها الأجيال جيلًا بعد جيل، أي: منكم ومن غيركم من الرّاسخين في الإيمان إلى يوم القيامة على جميع ما يُخبر الله تعالى به؛ ليتحقَّق النَّصر بأسبابٍ جليَّة أو خفيَّة[2]، ففي التَّعبير بصيغةِ المضارع إيماءٌ غلى تجدُّد هذه الآية في قلوب المؤمنين، وأنَّه كلَّما جدَّ مثيلٌ لها؛ تجدَّد النَّصر بما يُشابهها، فالمقصود استمرار الاعتبارِ في أعين النُّظّار.

غَرضُ تنكير لفظ ﴿ءَايَةً﴾:

آياتُ الله تعالى كـلُّـهـا عـظيمةٌ جليلة

نُكِّر لفظُ ﴿ءَايَةً﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لإرادة التَّعظيم، فهي آية عظيمة لصدورها عن الله تعالى، والمعنى: لتكونَ لغاياتٍ جمَّة، منها ما ذُكِر آنفًا، ومنها سلامةُ المسلمين في وقتٍ هُم أحوَج فيه إلى استِبقاءِ قوَّتِهم مِنهُم إلى قِتال المشركين ادِّخارًا للمستقبَل[3].

مَعْنى اللّام ودلالتها:

اللّام في ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ للاختصاص، أي: جعل ما تقدَّم آية خاصَّة بالمؤمنين

(1) تفسير مقاتل بن سليمان: 4/ 74.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 319.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 178.

المذعنين لأمر رسول الله ﷺ، فالإيمان من دواعي تدبُّر آيات الله تعالى وفَهْم سُنَنِه في الكَوْنِ.

نكتةُ التَّعبير بوصف الإيمان:

نـغـتُ الـحـقِّ للمؤمنين بصفة الإيـمـانِ دليل الرِّضا والقَبول

ذُكِر وصفُ الإيمان دون الإسلام في قول الله تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفي قوله سبحانهُ قَبْلُ: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ إقرارًا وشهادةً لهم بنَعْتِ الإيمان، وتأكيدًا على أنَّ انقيادَهُم لرسول الله ﷺ ومبايعتَهُم له على المَوْتِ هو صَميمُ الإيمان الذي كافأهُم عليه، وأنَّ شأن المُؤْمِنين أن يكون على الجادَّة في كلِّ وقتٍ وحينٍ.

معنى الواو في ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾:

اجتماعُ طَمأنة القُلوب وإقناعِ العُقولِ

الواو في ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدها على جملة: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: لتكون آيةً لعُقولِكم، ويزيدَكُم بصيرةً ويقينًا وثقةً بفضل الله تعالى عليكم[1]، فيجتمع لكم إقناعُ العقولِ وإيمانُ القلوبِ.

دلالةُ التَّعبير بالفعلِ المُضارع (يهديكم):

غـرضُ الآيـاتِ تجديدُ الهداية لـلـثَّـبـات والاستمرارِ

جاء فعلُ الهداية في قول الله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ مُضارعًا؛ ليُفيد التَّجدُّدَ والحدوث والاستمرار، أي: أراكم ما أراكم من آياته ليَهْدِيَكُم هداية متجدِّدةً مستمرَّةً في نحو هذا الأمر الَّذي دَهَمَكم، فأزعجكم بالثَّبات عند سماع الوعد والوعيد والثِّقة بمضمونه؛ لأنَّه عزيزٌ حكيم، فهو لا يخلف وعدهُ بهدايتكم[2]، فكلَّما نازَعَتهُم وساوسُ النَّفس؛ رَجَعوا إلى الله تعالى بما يَرَوْنَهُ مِن تحقُّق الوعد والوعيدِ.

غرضُ الالتفات من الخِطاب إلى الغَيبة، ثُمَّ إلى الخطاب:

التفت النَّظْمُ الكريم من الخطاب في قولهِ تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 341.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 319.

ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ﴾ إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فلم يرِد في النَّظْم القرآنيِّ: (ولتكون آية لكم)؛ إذ الاسم الظّاهر في قوّة الغَيبة، ونكتةُ ذلك: أن يشهَدَ لهم بالإيمان تشريفًا وتعظيمًا، وليَدُلَّ لفظُ ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على العموم، وهو المُتَّسق مع تنكير لفظ ﴿ءَايَةٗ﴾، فيُخرِج بذلك غيرَ المؤمنين، فإنَّهم لا ينتفعون بها، ثُمَّ التفَت إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾، أي: طريقًا واسعًا واضحًا موصلًا إلى الكرامة من غير شكٍّ؛ لينصَّ على هدايتهم على وجه الخصوص دون غيرهم، وهذا من أعلام النُّبوَّة، فإنَّه لم يزغ أحدٌ من المخاطَبين بهذه الآية، وهُم أهل الحديبية، فلم يَرِد في النَّظم القرآنيِّ: (ويهديهم) بالغَيبة على ما اقتضاه السّياق؛ لئلّا يعمَّ غيرَهم ممَّن يَظْهَرُ صِدْقُه في الإيمان، ثُمَّ يَزيغ، ولذا كانت أكثرُ تفاصيل هذه السّورة من أعلام النُّبوَّة، فإنَّه وقع الإخبارُ به قبلَ وُقوعه[1].

الاعتبار بالآيات من الإيمانِ، والهدايةُ أولى ثمراتِ الإيمان

عرضُ تنكير لفظ ﴿صِرَٰطٗا﴾:

نُكِّر لفظ ﴿صِرَٰطٗا﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾، وهو المفعول الثّاني لفعل الهدايةِ (يهديكم)؛ لغرض التَّعظيم والتَّفخيم، أي: يهديكم طريقَ التَّوكُّلِ وتفويضِ الأمورِ إليه، أو أنَّ المعنى: يهديكم بَصيرَةً وإتقانًا[2].

تعظيمُ طَريقِ الهِدايَة وتَفْخيمُه

بلاغةُ التَّقييد بصِفَةِ ﴿مُّسۡتَقِيمٗا﴾:

جاء تقييدُ المَوْصوفِ وهو الصِّراط بكونه ﴿مُّسۡتَقِيمٗا﴾؛ ليدلَّ على أنَّ طريقَ الحقِّ مستقيم معتدل لا اعوجاج فيه ولا انحرافَ، بخلاف السُّبل الأخرى، فيكونَ فيه إيماءٌ بالوعدِ باستمرار الهداية، فإنَّ شأن الاستقامة أن توصِلَ إلى المطلوب، وهو الجنَّة.

الإيماءُ بالامتنان إلى دخولِ الجنَّة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 319.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 494.

معنى الواو ودلالتها:

العطفُ يقتضي الاستزادةَ من الامتنانِ بالغَنائِم

الواو في ﴿وَأُخۡرَىٰ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا﴾ عاطفة (أُخرى) على ﴿هَٰذِهِۦ﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ﴾، أي: فعجَّل لكم هذه المغانم، وعجَّل لكم مغانم أخرى لَم تَقْدِروا عَلَيها، وهي مغانم هوازنَ في غزوة حُنين[1]، ويجوزُ أن تكون منصوبةً عطفًا على ﴿مَغَانِمَ﴾ في قوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا﴾، والمعنى: ووعَدكم الله أُخرى[2]، وجائزٌ أن تكون (أخرى) مبتدأً مرفوعًا، وسوَّغ الابتداءَ به مع كونه نكرةً لكونه موصوفًا بـ ﴿لَمۡ تَقۡدِرُواْ﴾، وقولُه: ﴿قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ خبرُه[3].

بلاغةُ تَرتيب ذِكْرِ الغَنائم:

التَّدرُّج في ذكر الغنائم زيادةٌ في الامتِنان

أفادت الواوُ في ﴿وَأُخۡرَىٰ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا﴾ الجمعَ بين البِشارتين معًا، فاقْتَضى العطفُ بيانَ نوعين مِن الغنائم، الغنائم الكثيرة التي يأخذها المؤمنون، وأخرى لم يَعْلَموا عنها، ولم يَقْدِروا عليها، ففيهِ عطفُ النَّوع الأصعب من الغنائم على النَّوع الأوَّل، وهذا تَرَقٍّ في الامتِنانِ.

نكتةُ حذف الموصوف:

الإيماء إلى تعدُّد الغنائم وتنوُّعها وشمولها

كلمة (أخرى) في قول الله تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا﴾ صفة لموصوفٍ محذوفٍ، أي: (ومغانم أخرى)، أي: وقضى لكم مغانمَ أخرى مؤجَّلة، وفي حذفِ الموصوفِ إيماءٌ إلى تعدُّدِها وشمولها الغنائمَ والسَّبي والأماكنَ والنَّصر وغيرَها، وعوملت الصِّفة معاملة الموصوفِ لقيامها بوظيفتها في الإعرابِ والبيان.

بلاغةُ تقييد الموصوف بجملة الصِّفة:

قول الله تعالى: ﴿لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا﴾ صفة لكلمة (أخرى) على

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 341.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 80.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 341.

اعتبارِ رفعِ لفظِ (أُخرى)، وأمّا على كونِ (أخرى) في محلِّ نصبٍ صفةً لموصوفٍ محذوفٍ، والتَّقدير: (ومغانمَ أُخرى)؛ فإنَّ ﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ صفةٌ أُخرى لـ ﴿مَغَانِمَ﴾ المحذوفةِ[1]؛ وذلك لما كان فيها من الجَولة[2] والصَّولة من قبل المشركين على المؤمنين، فلو لم يُمَكِّنهم الله تعالى منها؛ ما حصلوا عليها، ولمّا كانت جملة: ﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ صفةً لـ (أخرى) أو لـ ﴿مَغَانِمَ﴾ المحذوفةِ؛ لم يقتضِ مدلولُ الجملة أنَّهم حاولوا الحصولَ عليها، فلم يقدروا، وإنَّما المعنى: أنَّ صفتها عدمُ قدرتِكم عليها، فلم تتعلَّق أطماعُكم بأخْذِها[3].

الإشـــارةُ إلى جَولة المُشركين وصـولَـتِـهـم تـوطـئـةً لـبـيـانِ عـظـيـمِ الـقُـدْرَةِ الإلهيَّةِ

دلالَةُ التَّعبير بالفِعْلِ المُضارِع ﴿تَقْدِرُواْ﴾:

عُبِّر بالفعلِ المُضارِع ﴿تَقْدِرُواْ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ منفيًّا بـ ﴿لَمْ﴾؛ للدَّلالةِ على الدَّوام والاستمرار، وهو استمرارٌ للنَّفْيِ في المُضيِّ لا نفيُ الاستمرارِ، وفيه عظيمُ المِنَّة عليهم بذلك؛ إذ منَّ الله تعالى عليهم بهذه المغانم التي لم يَقدروا عليها، وسخَّر لهم ما لَم تكُنْ لهم به طاقةٌ؛ ليعلموا أنَّ الفضْلَ والنَّصْرَ من عند الله تعالى.

عـظـيـمُ فَـضْـلِ الله تعالى عَلى أهلِ الإيمانِ

دلالةُ حرف الجرِّ (على):

(على) في قول الله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ حرفٌ دالٌّ على الاستعلاء، وفي نفي استعلاء قُدرتِهم إثباتٌ لشدَّةِ ضعفِهم مقرونًا بالدَّليل.

بـيـانُ شـدَّة ضعفهم وكمال عَجْزِهم

وفي قوله: ﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ دلالةٌ على كمال عجْزِهم وانعدامِ حيلتهم، ووجه ذلك: أنَّ الفعل المضارِعَ ﴿تَقْدِرُواْ﴾ مشتمِلٌ على مصدرٍ وزَمَنٍ، والأصل في المصدرِ كونه نكرةً، فيكون في قوله تعالى:

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 244.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 341، والطيبي، فتوح الغيب: 14/ 403.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 180.

﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ نكرةٌ - وهو المصدر المستَكِنُّ في الفعلِ - في سياق النَّفْيِ، فيَعُمُّ نفيَ جميعِ أنواعِ القُدرة وصوَرِها.

دلالةُ استعمال ﴿قَدْ﴾:

توكيدُ تحقُّق الإحاطة بالغنائم

أفاد الحرف ﴿قَدْ﴾ في قول الله تعالى: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ توكيدَ الإحاطة، وذلك أنَّه لمّا نفى عنهم القدرة على الاستيلاءِ عليها؛ بيَّن قدرته سبحانه على ذلك، بذكر ﴿قَدْ﴾ التي أفادت توكيدَ الوقوعِ وتحقيقَهُ، وهو ما يُقرِّر صِدقَ الوعد مقرونًا بالدَّليل، وهو تأكيدُ الإحاطةِ.

براعةُ استعمال مفردة ﴿أَحَاطَ﴾ دون (قدر):

بيانُ الفرقِ بين قدرة العبد المنفيَّة وإحاطة الله تعالى المُثبتة

دلَّ استعمال فعل الإحاطة ﴿أَحَاطَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ على القدرة البالغة مبلغَ الإحاطة من كلِّ الجوانب الزَّمانيَّة والمكانيَّة والماديَّة، فلمّا نفى عن المؤمنينَ القُدْرَة على تلك الغنائم؛ كان المناسبُ ذِكْرَ الإحاطة لا القدرة، ولذلك لم يقل: (قد قَدِرَ الله عليها)؛ إذِ الإحاطة أشمَلُ وأبلَغُ مِنَ القُدْرَة، ولبيان الفرق بين قدرة العبد المنفيَّة وإحاطة الله تعالى المثبتة.

وعُبِّر بصيغةِ الماضي ﴿أَحَاطَ﴾؛ لبيان تمكُّن حِفْظِ الله تعالى لهذه الغَنائم أزلًا، ومِن ثمَّ بثَّ في قُلوبِهم الأمانَ بحصولهم عليها، فالَّذي يتولّى حِفظَها هو الله تعالى، وفي معنى الإحاطة إشارةٌ إلى أنَّها كالأمرِ المحاط به من جوانبِهِ، فلا يفوتهم مكانه، وجُعلت بمنزلةِ المخبوء لهم[1].

غرضُ التَّعبير بالاسمِ الأحسَنِ:

توريثُ المهابةِ في القلوب لزيادة الثِّقة والطُّمأنينة

جاء المسند إليه في قول الله تعالى: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ بالاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لتوريث المهابةِ في نفوس السّامعين، فإنَّ ذِكْرَ الاسم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 180.

الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ من شأنه تحريكُ قلوب العباد تجاه خالقِها ﷻ الَّذي أحاط بكلِّ شيءٍ علمًا وقدرةً، وذلك لدلالةِ اسم ﴿ٱللَّهُ﴾ على جميع معاني الكمال والجلال.

معنى الباء ودلالتها:

بيانُ عظيمِ قدرة الله تعالى

تعدّى فعل الإحاطةِ ﴿أَحَاطَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَآ﴾ بحرف الباء - وهي دالَّةٌ على الإلصاقِ - لبيان شدَّة تمكُّن الله تعالى منها، وأنَّها تحت نهيه وأمره ومقدوره وإرادته، وفي هذا إيناسٌ لهم بحتميَّة الحصول عليها.

معنى الواو ودلالتها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ استئنافيَّة، والجملة بعدها مستأنفةٌ واردةٌ؛ تذييلًا لِما جاء في مضمون الآية مِن إثبات القُدْرَةِ والإحاطة لله تَعالى.

بلاغةُ التَّذييل في الآيةِ:

إيناسُ المؤمنين بتحقيق وعد الله تعالى

جاء قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ تذييلًا، وهو تذييل جارٍ مجرى المَثَلِ؛ لاستقلاله بالإفادَةِ وعدم افتقاره إلى غيرِهِ في بيان تمامِ المرادِ مِنه، وجملة التَّذييل وارِدَةٌ في بيانِ عموم قدرة الله تعالى على كلِّ شيءٍ؛ ليدلَّ على أنَّه سبحانه المحيط بجميع صفات الكمال أزلًا وأبدًا[1]، وفي هذا تمكينٌ لبثِّ السَّكينة واليقين في قلوب المؤمنين، وإيناسٌ لهم بتحقيق ما وعدهم الله تعالى، فالجملَةُ تذييلٌ لِما جاء في الآيات السّابِقَة.

نكتَةُ الإظْهارِ في موضعِ الإضمارِ:

تقويةُ المعاني بِذكر صاحب الجلال والجمال

أُظهِرَ الاسم الأحسَنُ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله سبحانَهُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾، مع تقدُّم ذكره في قوله: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَآ﴾، فكان

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 320.

مقتضى الظّاهر أن يَرِدَ في النَّظم القرآنيِّ: (وكان على كل شيء قديرًا)؛ وذلك لتقعَ جملة التَّذييل موقعَ الاستقلال في ذاتها في النَّظم والبناء اللَّفظيِّ، فكان ذِكْرُ الاسمِ الأحسَنِ مقوّيًا لمعناها؛ لِما تحويه من الدَّلالة على الاقتدارِ الإلهيِّ، والإحاطة الشّاملة، ولتذهب جملةُ التَّذييلِ مذهبَ الأمثال السّائرة في معناها ومَضْمونِها.

دلالةُ حرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾:

بيانُ عموم قدرةِ الله تعالى

أفاد حرفُ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرًا﴾ الاستعلاءَ والتَّمكُّن من الشَّيءِ تمكُّن المستعلي عليه، فلا يخطئه أبدًا، وهذا الاستعلاءُ أصلُ معاني ﴿عَلَىٰ﴾، وهذا يدلُّ على قدرته سبحانه على كلِّ شيءٍ قدرةً محيطةً مطلقةً.

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور على المُسْنَد:

إبـــرازُ معنى الإحـــاطـــة والـشُّـــمـــول وعموم القدرة

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، وهو من متعلِّقات المسند ﴿قَدِيرًا﴾ عليه؛ لإبرازِ معنى الإحاطة والشُّمول وعموم القدرة الَّتي لا تخطئ شيئًا أبدًا، وذلك للعناية والاهتمام بالقدرة على التَّصرُّف في كلِّ شيءٍ، ولا سيَّما فيما يخصُّ ما جاء في السّياق من ذكر قدرة الله تعالى وإحاطته بالمذكور من شأن الغنائم، وما يسبقه من الإيماء إلى النَّصر والتَّمكين للمؤمنين.

دلالةُ إضافة لفظ العموم إلى العموم:

دفْـعُ كـلِّ وهـمٍ لتحقيقِ تمام الطُّمأنينة

أُضيف لفظ ﴿كُلِّ﴾ وهو من ألفاظ العموم إلى ﴿شَيۡءٖ﴾، وهو نكرة دالَّة على العموم البَدَليِّ؛ لإفادةِ استغراق كلِّ ما يتصوَّره عقلُ المخاطَب وما لا يتصوَّره، فإنَّ النَّفس تترقَّب وجودَ أشياء لا تعلَمُها، ومنها تأتي المخافة، وبسببها يقع الوَهم، فكانت دلالة العموم المطلق دافعةً لكلِّ وهم، ومناديةً على بثِّ الطُّمأنينة بأنَّ الله على كلِّ شيء قدير، فمَن والى الله تعالى؛ فلا غالبَ له، ومن آمن بالله حقَّ التَّوكُّل؛ فهو المُظفَّر المنصور.

دلالةُ تَنكير لَفظِ ﴿قَدِيرًا﴾:

سَعَةُ قُدْرَةِ الله تعالى وكمالُها

نُكِّر لفظُ ﴿قَدِيرًا﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾؛ لإفادَةِ تعظيم الوصفِ الَّذي تضمَّنَهُ الاسْمُ، فهو عظيمُ القُدرةِ واسِعُها وكامِلُها، فلا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

غرضُ اختيارِ صفة القدرة دون العلم:

تعظيمُ قدرته تعالى وتفخيمُها بما يتناسب مع مضمون السّياق

اختير وصفُ القدير في ختام الآية ﴿قَدِيرًا﴾ دون (عليمًا) أو (محيطًا)؛ وذلك لأنَّ المقصودَ بيانُ القدرة على كلِّ شيءٍ، وهو الأنسب لِلسّياق وموضوع الآيات المتقدِّمة، فقدرةُ الله تعالى يلزم عنها العلم، وليكون أنسبَ لبيانِ عموم قدرة الله تعالى بعدَ نفي القُدرة عن العبادِ في قوله: ﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

كفَّ ومَنَعَ:

الكفُّ امتناعٌ عن مـوالاةِ الفعل، بخلاف المنع فهو تعذُّرُ الفعل على القادِرِ

المنع ما يتَعَذَّر الفِعْل معه على القادِر، فَهوَ يضادُّ الفِعْل، وليس يُضاد القُدْرَة، ولا يُسمّى منعًا إلّا إذا كانَ معَ القُدْرة، فَليس هو العَجز في شَيء، وأمّا الكفُّ؛ فإنَّه يُستَعمَلُ فيما تَدْعو إليه الشَّهْوَة، وفيما لا تَدْعو إليه، يُقال: كفَّ عَن القِتال، كَما يُقال: كفَّ عَن شربِ الماء، وأصل الكَفِّ: الانقباضُ والتَّجمُّع، ومِنْه سُمّيت الكَفُّ كفًّا؛ لأنَّها تقبض على الأشياء وتجتمع، فالكفُّ عَن الفِعل هوَ الامتِناع عَن موالاة الفِعْل وإيجاده حالًا بعد حال، خلاف الانبساط فيهِ؛ إذ أصلُه: الانقباض[1].

وإيثارُ التَّعبير بالفعل (كفَّ) في قولِه: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ دون (منع)؛ لأنَّ المنع يدلُّ على منْعِهم عنهم مع قُدْرَتِهم

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 112.

على قِتالهم، وهذا يُضعِف المَعْنى، وهو أدْعى لبَثِّ الخوف بين المؤمنين، بخلاف الكفِّ الذي يُبَيِّن أنَّه كَفَّهُم عنهم حالَ كونِهم منقبضين مذعورين من قتال المؤمنين، وهذا أضمَنُ لبَثِّ الطُّمأنينة والسَّكينة في قلوب المؤمنين.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والخمسون،
سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والخمسون، سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 56 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-29-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 56 : المجلد السادس والخمسون، سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-29-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9075646 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"